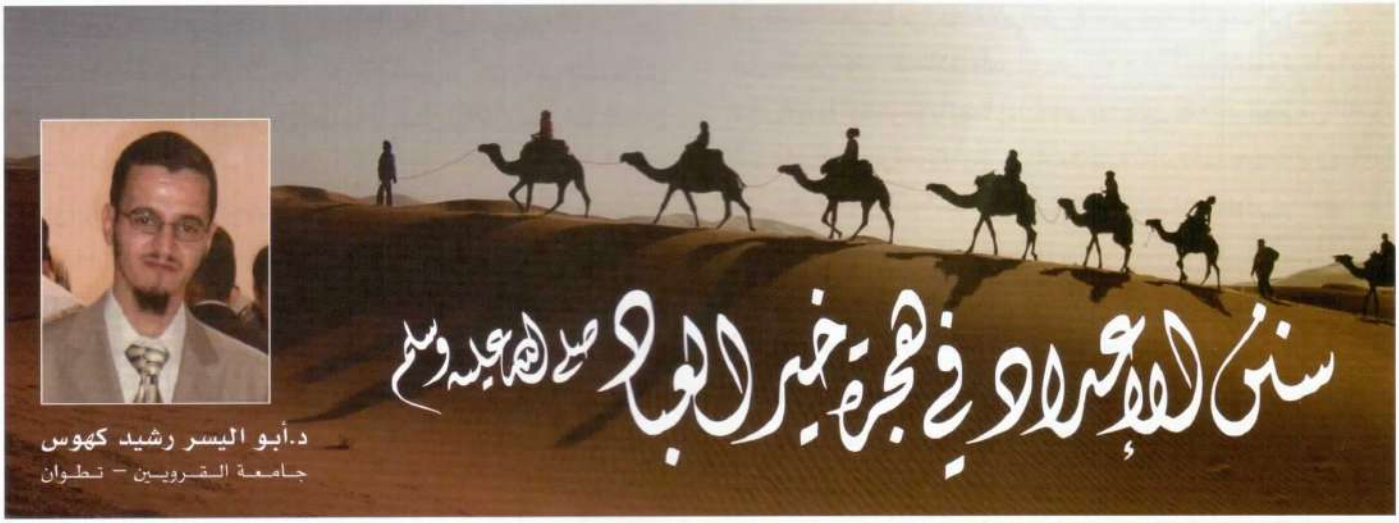

سنن الإعداد في هجرة خير العباد صلى الله عليه وسلم

د.أبو اليسر رشيد كهوس
جامعة القرويين – تطوان

النبي ﷺ أحكم خطة الهجرة، ووفر لها وسائلها، آخذاً بالحيطة والحذر، واثقاً بحفظ الله، فكانت النتائج ظاهرة فاخرة: مجتمع عمراني أخوي جديد ينشأ في المدينة المنورة

إن القرآن الكريم حافل بالآيات التي تدعو المسلمين إلى الأخذ بسنن الأسباب في هذه الحياة، ألم يَقُل ربنا تبارك وتعالى لمريم العذراء عليها السلام: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (مريم:٢٥)، وهو قادر – تعالى وتقدس – أن يقول للشيء كُنْ فيكون، ومع ذلك أمرها باتخاذ الأسباب.

ولله درُّ القائل:

"ألم تَرَ أن الله أوحى لمريم ... وهُزِّي إليك الجذع يُساقط الرُّطب

ولو شاء الله أحنى الجذع من غير هَزِّه ... إليها ولكن كل شيء له سبب" (١)

وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم، إلا بسبب كسلها وخمولها، واكتفائها بالأماني المعسولة والأحلام، وعدم الأخذ بأسباب النصر والتمكين، فكان حالها ما نرى اليوم من الخطوب التي تلهب ظهرها بُكرة وعشيّاً.

ولأهمية سُنّة اتخاذ الأسباب لم يغفل عنها سيد الوجود ﷺ وهو المؤيَّد بالوحي في جهاده، وكان يُوجِّه أصحابه الكرام ﷺ دائماً إلى مراعاتها في كل أمورهم الدنيوية والأخروية، وهذا يتضح جليّاً في هجرته ﷺ إلى المدينة؛ وذلك من خلال الأسباب الآتية التي هيّأها سيدنا رسول الله ﷺ بعد وضع خطواته الأولى على الطريق وهو يدعو ربه:

١- إدراك النبي ﷺ الاستعداد الكبير للأنصار في قبول رسالة الإسلام ونشرها، فكانوا طليعة الدعوة الإسلامية في المدينة التي آتت أُكلها في وقت وحين، حيث لم تَبْقَ دار من دور الأنصار إلا ودخلها نور الإسلام.

٢- بيعة العقبة الأولى، وبعث النبي ﷺ سفيره إلى المدينة مصعب بن عمير ﷺ بعد انصراف القوم عنه ليُعَلِّم الناس دينهم، وأمور شريعتهم، ويُقرئهم القرآن، فكانت ثمار ذلك يانعة، ونتائجه حسنة.

٣- بيعة العقبة الثانية أو الكبرى، التي مهَّدت الطريق للهجرة بنشر الإسلام في المدينة، وببيعتهم على حماية النبي ﷺ مما يحمون به أنفسهم في المنشط والمكره.

٤- اختيار المكان المهاجَر إليه وهو يثرب، واختيار الصديق الحميم المحب الرفيق في الطريق وهو أبو بكر الصديق ﷺ، وإخباره في الوقت المناسب، وكتمان أمر الهجرة، والاستعانة على ذلك بالسر والحيطة والحذر، والخروج في النهار ساعة القيلولة والهاجرة وفي الحر الشديد، وإعداد الراحلتين له ﷺ وللصديق أبي بكر ﷺ، وتموين الهجرة، واستئجار الدليل الماهر بالطريق، والاستفادة من خبرة المشركين، بعد الثقة الكاملة في نصر الله وتأييده وعصمته لحبيبه وصفيّه من الناس. عن الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ رضي الله عنها أنها قالت: "كان لا يُخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أُذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها.. قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حَدَث! قالت: فلما دخل تأخّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: "أَخْرج عنّي مَن عندك؛ فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي وما ذاك؟ فداك أبي وأمي! فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة. قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيتُ أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا. فاستأجرا عبد الله بن أرقط – رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً – يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما"(٢).

٥- مبيت الإمام علي ﷺ على فراش الحبيب المصطفى ﷺ: قال ابن إسحاق: "ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً،

وأصابوا منهم مَنَعَة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة – وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها – يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد؛ قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شابّاً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منّا بالعقل، فعقلناه لهم".

قال ابن إسحاق: "فأتى جبريل عليه السلام رسولَ الله ﷺ فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسولُ الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نَمْ على فراشي وتَسَجَّ ببُردي هذا الأخضر، فنَمْ فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرده ذلك إذا نام.

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم. وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس: ﴿يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (يس:١-٩)، حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، ولم يَبْقَ منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهُنا؟ قالوا: محمداً؛ قال: خَيَّبَكُم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليّاً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدّثنا"[٣].

وفي هذه الرواية نجد وعداً إلهيّاً آخر إضافة إلى سُنّة اتخاذ الأسباب المادية، وهو وعد الله بعصمة نبيه الكريم ﷺ من الناس، كما في قول الحق جل وعلا: ﴿والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (الأنفال:٦٧)؛ وقد رأينا كيف عصم الله نبيه ﷺ من كيد الكافرين الذين خططوا لقتله والنيل منه ليستريحوا منه، فجعل الله كيدهم في نحرهم، وأفسد عليهم رأيهم.

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال:٣٠)، ويقول جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ (الطور:٣٠-٣١).

قال الإمام ابن إسحاق: "فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمد إلى غار بثور – جبل بأسفل مكة – فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمَّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر؛ وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما"[٤].

قال ابن إسحاق: "فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مئة ناقة لمن يرده عليهم، وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه يرعى في عيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يُعَفِّي عليه؛ حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له وأنتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بسُفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاماً [٥] فلما ارتحلا ذهبت لتُعَلِّق السُّفرة [٦] فإذا ليس لها عصام فتحل نطاقها فتجعله عصاماً، ثم علّقتها به"[٧].

فمن قول ابن إسحاق نستنبط مجموعة من سُنن الإعداد التي اتخذها النبي ﷺ في طريقه إلى المدينة؛ وهي:

- الخروج[٨] من خوخة لأبي بكر رضي الله عنه في ظهر بيته.
- اختيار الوقت المناسب للخروج إلى الغار، والمكوث فيه ثلاثة أيام.
- تركيز عدد الأفراد على أربعة؛ النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه، والدليل عبد الله بن أريقط، وعامر بن فهيرة.
- التخفّي في غار ثور في جبل ثور.
- إعفاء الأثر؛ كما كان يفعل عامر بن فهيرة مولى أبي بكر.
- اكتشاف حركة العدو بمكة، من طرف الاستخبارات النبوية؛ تكلّف بهذه المَهَمة عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما.
- تأمين الزاد، تكلّفت بذلك مولاتنا أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.
- طريق الهجرة، حيث سلك بهم الدليل أسفل مكة، ومضى بهما على الساحل... حتى وصل إلى الغار كما يتضح ذلك في خريطة الهجرة الآتية:

٧- إخفاء شخصية سيدنا رسول الله ﷺ في طريق الهجرة؛ عن سيدنا أنس رضي الله عنه "أن أبا بكر كان رَديف النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وكان أبو بكر يختلف إلى الشام، فكان يُعرف، وكان النبي ﷺ لا يُعرف، فكانوا يقولون: يا أبا بكر، مَن هذا الغلام بين يديك، قال: هاد يهديني السبيل"[٩].

هذه الأمور المذكورة كلها

تدخل في سُنن الإعداد، رُغم أنه رسول الله ﷺ ومع ذلك لم يترك اتخاذ الأسباب، بل توكل على الله واعتمد عليه، ثم أخذ بكل سُنن الإعداد، كما ذكرت.

وخلاصة القول: فإن النبي ﷺ خطّط تخطيطاً مُحكماً رائعاً مُسَدّداً بالوحي، ملتزماً بسُنّة الله في الكون، قبل أن يشرع في الهجرة إلى المدينة، وأخذ الحيطة والحذر، والتزم السر والكتمان قبل الهجرة وأثناءها، بعد ثقته الكاملة في حفظ الله له وعصمته من الناس ونصره له، فأَحْكَم صلوات ربي وسلامه عليه خطة الهجرة، ووفر لها وسائلها، واستجمع لها أسبابها، فكانت النتائج ظاهرة فاخرة، والثمار يانعة، محفوفاً بالنصر والتمكين، والظهور على الأعداء، فكان ذلك المجتمع العمراني الأخوي الخالد المتين الذي نشأ في المدينة المنورة على يد سيدنا رسول الله ﷺ وفي محضن الصحبة النبوية تحت ظلال المسجد: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران:١٦٠).

وختاماً: إن الإيمان بالله – عزّ اسمه – والاعتماد عليه والتوكل عليه لا يُنافي أبداً الاستفادة من سُنن الله التي جعلها الله في هذا الكون ناموساً ثابتاً ومطّرداً.

ولهذا التزم النبي ﷺ بسُنن الإعداد لمّا جاءه الأمر بالهجرة إلى المدينة، فقام بتهييء الأسباب الكاملة – كما رأينا – لنجاح الهجرة، وهو متوكل على الله عز وجل في الأمر كله، متوسداً عتبة الافتقار إلى رب الأرباب، سائلاً وداعياً وواقفاً بالباب حتى فُتح له، فكانت النتائج مُفرحة، والخطوات مُسدّدة، كما خلّد ذلك القرآن الكريم، وكتب السيرة النبوية ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف:٨).

هوامش:

١. روح المعاني للألوسي، ٨٥/١٦.

٢. سيرة ابن هشام، ٣٥٤/٢. البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٤/٢. تاريخ الطبري لأبي جعفر الطبري، ٥٨٦/١. سيرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، سليمان الندوي، ص٥١.

٣. سيرة ابن هشام، ٣٥٢/٢-٣٥٤. البداية والنهاية، ١٨٣/٢.

٤. سيرة ابن هشام، ٣٥٤/٢-٣٥٥. البداية والنهاية، ١٨٥/٢. الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير، ص٣٣.

٥. عصاماً: المَحمل شكالُه وقَيْدُه الذي يُشَدُّ في طرف العارضَيْن في أعلاهما، وقال الأزهري عصاما المَحمل كعصامَي المَزادتَيْن والعصامُ رباط القِرْبة وسَيْرُها الذي تُحمَل به (...)، وعصامُ القِرْبة والدَّلو والإداوة حَبْلٌ تُشدُّ به وعَصمَ القِرْبةَ وأَعْصَمَها جعل لها عصاماً وأَعْصَمَها شَدَّها بالعصام وكل شيءٍ عُصِمَ به شيءٌ عصامٌ والجمعُ أَعْصِمةٌ وعُصُمٌ. لسان العرب، مادة: عصم.

٦. السُّفْرَة: طعام يتخذه المسافر وأكثر ما يحمل في جلد مستدير، فالسُّفْرَة في طعام السَّفَر كاللُّهْنَة للطعام الذي يؤكل بُكرة. لسان العرب، مادة: سفر.

٧. سيرة ابن هشام، ٣٥٥/٢. البداية والنهاية، ١٨٥/٢.

٨. كان خروجه ﷺ من مكة يوم الخميس وخروجه من الغار كان ليلة الإثنين، لأنه أقام فيه ثلاث ليال، فهي ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد وخرج في أثناء ليلة الإثنين. فتح الباري، ٢٧٠/٧.

٩. مصنف ابن أبي شيبة، باب ما قالوا في مهاجر النبي ﷺ، ح٣٦٦٣.